العلاقات الجدلية بين النظرية والثورة

بقلم عزيز السيد جاسم

أن سمة هذا العصر الأساسية هي التحول الاشتراكي . فلم تعد الاشتراكية محصورة في وطن واحد أو مجموعة اوطان بل أنها البديل الثوري العادل الذي أختارته الجماهير في أوطان عديدة فيما بدأت الرأسمالية بالأنحسار والتخلي تحت وطأة ضربات الشعوب عن كثير من مرتكزاتها المصلحية ومرافىء تموين شركاتها الاحتكارية . والتحول الاشتراكي نفسه لم يتخذ صورة محددة أو منهجا دوغمائيا ، والرأسمالية في ذلك قد تقرر الى حد بعيد نوعية التحول ودرجته. ولهذا فبين الأمكانية الثورية الجماهيرية المتهيئة وبين طبيعة السلوك الرأسمالي المتغير تتولد وتائر متعددة ومرنة للتحول نحو الاشتراكية ، قد تكون سلمية أو عنفية أو مزيجا بينهما .

والفكر الثوري في فترة النضال من أجل التحول الاشتراكي لا يمكن أن يقف بمعزل عن العمليات التغييرية السائدة ، بل هو متجاوب بشكل كلي مع الفعاليات الثورية وسواء أكان هذا التجاوب منسقا أو غير منسق فأن الألتصاق بين الفكر والثورة هو ألتصاق طبيعي يتحتم من خلال القوانين الموضوعية لحركة المجتمع ، وانطلاقا من أهمية الفكر القصوى في شحن الثورة ودفعها الى غاياتها الحقيقية ، وحيث ان الثورة العربية تمر بأزمة فكر حيث لا تزال الاقسام الوسيعة من الفكر العربي تحبو تحت ضغط التقليد الغيبي والتحليل الرجعي والنفعية البورجوازية ، فمن الضروري وعي بعض الموضوعات التالية كمساهمة اولية ومدخل للقضية الاساسية، قضية أعداد فكر ثوري عربي ممتلىء يتحرك بالثورة وتتحرك به الى أهدافها القصوى .

((الموضوعة الاولى: الفكر سابق للثورةام بالعكس تاريخيا ؟))

أن روح الثورة في الانسان هي السابقة . وهذه الروح هي التي تغذي تصرفات الانسان وتحدد له وظيفته العامة ازاء الكون وازاء علاقاته الاجتماعية واليومية . وروح الثورة طبيعية في الانسان ولكنها تتخذ اشكالا عديدة ، فهي آنا قد تكون بدائية راكدة ، وآنا بدائية انفوانية ، وهي قد تكون واعية سالبة أو تكون ايجابية وأعية . وفي أشكال الكينونة المتعددة هذه تختار روح الثورة حركتها ومواقعها في تظهير جلي عند الاحتكاك بقضية او بمجموعة قضايا بين الذات وخارج الذات .

وروح الثورة عند الانسان لا يمكن قصرها على ((العاطفة)) او على ((العقل)) ، فهي مزيج من العقل والعاطفة ، ولذلك فهي وحدة التناقض الجدلية في الانسان التي تفجر نقيضها في سلسلة ديناميكية من الافعال والتسلكات .

ولجوء الانسان القديم الى افعال هي شرطية أساسا ، انما يوضح لنا ، روح الثورة ، هذه الروح التي تشكل بوضعها الدفاع عن الحياة ضد المجهول والخطر المحدق . فالانسان في لجوئه الى استعمال ((العصا)) أو ((الحجر)) أو تعلمه ((صهر الحديد)) بعد استعماله النار ، كل ذلك الفعل في استعمال الأدوات لغايات معروفة انما يعني ان روح الثورة في الانسان هي التمرد الطبيعي على الوضع السلبي الحيواني . وبتطور هذا العقل أو مجموعة الافعال وبظهور أدوات جديدة كان الانسان يرسم رفضه صورا عديدة على الحجر . وما السحر في جذره البديئي الا نشأة ضرورية لروح الثورة في توضع جديد يتخذ فيه الخط ـ خط روح الثورة ـ مدى جديدا يقفز الى الفعالية دون الوقوف عند حد الثورة البدائية . فالسحر كمحاولة شمولية ـ تاريخيا ـ لعتق الانسان من عبوديات الخارج والتحرر من الخوف انما يوضح ان روح الثورة عند الانسان بدأت تتلمس نفسها وتضع لنفسها سيرا آخر . غير ان ظهور التقسيم في العمل هو أول سببارئيسي حاسم أعطى لروح الثورة في الانسان وضعها العياني البارز . فما أن ظهر التقسيم بين (الرجل والمرأة) ـ كأول تقسيم اجتماعي للعمل ـ وكذلك التقسيم الناتج عن الزراعة والصيد ، ومن ثم الزراعة والرعي حتى أخذت الثورة الكامنة في أعماق الانسان وعيا يخطط لها بعدها . فالصراع الطبقي أذن بلور روح الثورة بلورة ((عميقة)) ودفع بها الى حدود أخرى خارج الذات وبشكل عملي وجمعي محسوس . وبدلا من أن تتحدد روح الثورة في القضية الذاتية الوجودية السابقة تناولت شرطا اجتماعيا جديدا واتخذت مضمونا حسيا ملموسا تتصرف من خلاله .

وبقدر ما حصل من أزدياد في الأضطهاد الطبقي ـ لا سيما في عصر الرق ـ حصل بالمقابل تمرد حسي متراكم عبر عن نفسه بعدة صور. غير أن انضج هذه الصور وأكثرها فعالية هي صورة الثورة الجماعية . فاذا كان هروب الزنجي ـ أو العبدالمضطهد ـ من سيده هو حركة تلقائية من روح الثورة الغريزية في الانسان فأن الثورة الجماعية أو الاحتشاد الثائر هو معنى مجسد لصيرورة الثورة .

فهل كانت ثورة (سبارتاكوس) مزودة بفكر ثوري او على الاقل بنظرية في الثورة ؟ أن ثورة سبارتاكوس هي بالاساس رد فعل شديد ضد العبودية والاضطهاد . وبأحتواء روح الثورة (لرد الفعل) هذا وأحتواء رد الفعل لروح الثورة صيغت هذه العملية الثورية العظيمة. أي انها لم تكن مسبوقة بفكر ثوري أو بأعدادات نظرية أو بمعلومات فلسفية . وربما ما خلقته من حركة في (الفكر) بعد انبثاقها وأخمادها كان أكثر مما يهيء لها أو يسبقها من فكر بكثير لو سلمنا أن ثمة معاني فكرية مرصودة مع الحدث . من هذا يتضح ان اغلب الحركات الثورية قبل العهد البورجوازي كانت حركات مفتقرة الى الفكر الثوري وهذا طبيعي تماما .

ولكن السؤال الثاني الذي سرعان ما يتطلب الجواب هو : هل ان كل الثورات ليست مسبوقة بفكر تحريضي وداع للثورة ؟ في الواقع لا . فبأستقراء الحركات الثورية تاريخيا بعد بدء العهد البورجوازي نجد أنها محاطة من كل الجهات بتيارات فكرية متعددة . ولكنا مع ذلك نستطيع أن نميز هيكليا بين نوعين من الحركات الثورية من حيث علاقتها بالفكر الثوري . الثورات الاشتراكية والديمقراطية الشعبية وهي ثورات برزت نفسها من خلال تعبئة نظرية وسياسية وجماهيرية سابقة للحدث الثوري . وبذلك يكون فيها الحدث الثوري تجسيدا لصورة عن المستقبل في ذهن الثوريين وفي تكويناتهم الأيديولوجية .

أما النوع الثاني فيتمثل في الثورة الوطنية او التحررية التي لم يجر لها أعداد نظري متكامل بل تم ضمن أفكار محدودة ومعينة تتعلق بأساسيات وطنية وعمومية دونما افاضة في الرؤية الثورية

ودونما وعي أيديولوجي للثورة بين التاكتيك والستراتيجية وبين المنطلق والحركية الغائية .

وأذا كانت هناك أنماط عديدة لمثل هذا النوع من الحركات الثورية ، فلعل الثورة الكوبية هي النموذج البرائع الذي يمد الحركة الثورية العالمية . بمعطيات باهرة . فالثورة الكوبية لم تكن جاهزة الأيديولوجية قبل تفجيرها . انها ثورة اختارت النظرية الثورية لاحقا وبدفع الحدس الثوري الصادق والوعي المشرق . ونجاحها قدم تجربة فريدة أغنت النضال البشري في نتيجة واقعية مؤداها ان الفكر الثوري قد يأتي بعد نشوء الحدث الثوري دون أن يسبقه فيما عدا وجود علائم اساسية أولى سابقة .

ومن هنا فأن من الجبر اللاموضوعي اشتراط انتظار اطلاق ساعة الثورة لحين استكمال النظرية الثورية ، غير ان هذا لا يعني أيضا نفي الموضوعة الرئيسية الهامة في أن العدة النظرية الثورية المتمثلة هي شرط كبير وحاسم في خلق ثورة أصيلة . ان التاريخ النضالي قد يجد في مسيرته اللولبية المتصاعدة مجالا حيويا لكثير من الحركات الثورية التي يمتزج فيها التلقائي بالمدروس ونصف الوعي بالوعي أوقد تمتلك للفد رؤية محددة لكنها سرعان ما تتسع وتتغير بعد التفجير .

« الموضوعة الثانية : الفكر والتأسيس البنياني التحتي »

هل أن فكر الناس هو الذي يخلق وجودهم أم أن وجودهم هو الذي يقرر افكارهم ؟ هذا هو السؤال المطروح أمام الماركسية من قبل الميتافيزيك الفلسفي ، وهو ما أجابت عليه بعلمية . ولاول مرة في الفلسفة يتحرر الفكر من (الكوجيتو) الديكارتي و (الترنسندنتاليه) الكانتية . فالوجود البشري كوجود اجتماعي انما يتقرر بوجود أساس كبديل للمثالية والميتافيزيكيه المضللة . وأذا كان التأكيد قد جرى على العامل الاقتصادي كأساس مادي لحركة البشر الاجتماعية ، فان هذا لا يعني أن العامل الاقتصادي هو وحده الذي يطلق الحركة الاجتماعية ويفسرها . وقد أوضح (أنجلز) في رسالته الى (بلوخ) عام ١٨٩٠ ما يلي :

« في المفهوم المادي للتاريخ ، ان العامل المقرر في التاريخ ، هو في آخر مرجع ، انتاج واعادة انتاج الحياة الواقعية . لاماركس ولا أنا أكدنا اكثر من ذلك في يوم من الايام . واذا ما قام أحد بتشويه هذا الموقف بمعنى أنه جعل العامل الاقتصادي العامل المقرر الوحيد ، فأنه بذلك يحوله الى حملة فارغة مجردة حمقاء ..»

وعند البحث في موضوع حساس وفائق الاهمية كهذا ينبغي ان نتناول الموضوع بالتقسيم التجريدي أول الامر حتى يسهل علينا الانتقال من التجريد الى الموضوعية الواقعية على اعتبار ان التجريد لا يلغي الواقع وان كان ينبثق منه ويعدله .

تجريديا يجب توضيح الاساس المادي وهو مجموع العلاقات الانتاجية للبشر ، وما أصطلح على تسميته بالبناء التحتاني أو الاساس. وهذا البناء يعزز العلاقات (الفكرية ، السياسية ، الفنية .. الخ) وهو ما أصطلح على تسميته بالبناء الفوقاني . والستكمالا للتجريد فان التغيرات التي تصيب البناء التحتي تؤدي فعلا الى تغيرات لاحقة في البناء الفوقي . الى هنا ينتهي التجريد .

معنى ذلك أن الفكر كجزء من البناء الحقوقي انما يتبع التغيرات المادية المتولدة في الاساس التحتي وانسجاما مع هذا التجريد يكون (الفكر الاشتراكي) نتيجة لقيام (القوانين الموضوعية الاشتراكية) اي أن نشوء المجتمع الاشتراكي هو وحده مولد الثقافة الاشتراكية . ويكون مستحيلا وجود ثقافة اشتراكية سابقة للعصر الاشتراكي وسببا من أسباب قيامه . ولكن هل أن التجريد يتطابق مع الوقائع التاريخية المقروءة ؟ ان ثورة اوكتوبر (تشرين الاول)(الاتحاد السوفييتي) أجابت بنقض هذا التجريد . لقد سبق الثورة فكر اشتراكي متعاظم كانت (اللينينية) عموده الفقري .

ان الفكر الثوري لا يتحتم عليه ان يظل منسحبا وراء التغيرات المادية الثورية . أنه قد يسبقها وبفترة طويلة جدا . وان في تاريخ الفكر اشارات نظرية ترمز للثورة البعيدة قبل زمن طويل ، علام يدل هذا ؟ ان دلالته الوحيدة ان الفكر ولو انه ينضج ويسع ويصير اكثر فعالية بالثورة وبالتحول المادي المتقدم لا يتقيد بالمراحل. ان أفكار (بروتاغوراس) و (هيراقليطس) و (ديمقرطس) والرواقيه والابيقوريه والطبيه كلها علامات ورموز وأشارات فكرية مضيئة تدلل على التحول في الاشياء دون ان تنتظر التحول حتى تعلن ميلادها .

أذن فللفكر فعالية خاصة ، وهو بأمتزاجه بالارادة الثورية قد يوفق في خلق مجتمع اشتراكي من رحم مجتمع متخلف ما دام العصر هو عصر الاشتراكية وتعاظم المعسكر الاشتراكي . فلا يمكن التوقف عند تشخيصات ميته مثل (المجتمع الاقطاعي يفرز فكرا أقل ثورية . وهذا الفكر غير قادر على أن يكون مرشدا للعمل ! ولهذا فبناء أساس للاشتراكية المقبلة هو من قبيل البناء في الهواء !) . ان تشخيصا كهذا بائس ومنغلق يتحدد في رؤية انعزالية لا تلتفت للتغييرات العالمية الكبرى التي تنضاف للقوانين الاجتماعية لكل بلد وتعمل على دفعها وتغييرها .

أن الأيديولوجيا الثورية والسياسة الثورية جزء هام من الممارسة الثورية التحولية في البلدان المتخلفة والتي تعطي تصورا في أنها بعيدة جدا عن الاشتراكية . وفي رسالة (انجلز) الى (ك . شميدت) ـ ١٨٩٠ ـ قال : « اذا كان بارث يعتقد اننا ننكر دور السياسة والايديولوجيا ، فهو يحارب طواحين هواء . ان ما ينقص كل هؤلاء السادة هو الديالكتيك . وانهم لا يرون سوى هنا السبب ، وهناك النتيجة . ولا يرون ان هذا تجريد بارد ، وان مثل هذه التعارضات القطبية ، الميتافيزيقية ، لا توجد في العالم الواقعي الا في أثناء الأزمات ، وان التطور الواسع كله يتتابع في شكل فعل متبادل .. »

فالأستنتاج هنا بدور الفكر السابق للتحولات المادية هو اضفاء صفة العالمية والشمولية للفكر أحيانا واقرار بأن الفكر الثوري قد ينبت مبكرا وقبل أي تغير مادي ملموس على اعتبار ان في تاريخ كل مرحلة توجد بدايات جنينية في المرحلة التي تسبقها أو قبل ذلك بكثير .

وأساسا يكون الأصرار على تبعية الفكر ومحدوديته بدورات الانتاج وتبدلات العلائق الانتاجية بالشكل الميكانيكي المطروح أحيانا من قبل (ميتافيزيائي المادية) انما هو اعلان لوعي خاطيء وفاشل. نعم أن الفكر بأساسه المادي وبأصلية راسخة غير ان تفسير ذلك لا يتم بالربط المتزمت والدوغمائي بين (المرحلة) و (فكر المرحلة). وما دام التأكيد قد جرى من قبل النقاد العلميين الماديين على فعالية الفكر كمؤثر سابق فأن من الموضوعية أيضا الانتباه الى

منشورات دار الاداب

تطلب في دمشق من وكيل الدار

مكتبة النوري

شارع سنجقدار

حقيقتين واقعيتين ،الاولى ان الفكر يتعمق بالثورة الاشتراكية ويتأصل وتمتد جذوره في تربة أوسع ، أي ان الفكر لا يصبح قصرا على مجموعة أفراد أو هيئات معينة بل يصبح الفكر أكثر انتشاراً وتغلغلا بين الجماهير ، أن الدول الاشتراكية قد قدمت عدة أدلة على تعاظم الفكر بعد ثورانها الاشتراكية والديمقراطية الشعبية ، وازدياد التطور العلمي وتحول الثقافة الى ثقافة جماهيرية متلاحقة هما من حصاد الثورة الاشتراكية . والحقيقة الثانية ، وهي من معطيات التجربة في العالم الثالث تشير الى ان من الممكن حدوث تغيرات ثورية في الاساس المادي للمجتمع ويظل الفكر (الغيبي ، الرجعي ، الانكالي ..) متخلفا وعائقا أمام التطور المادي ، بل وأكثر من ذلك قادرا على القضاء على التحولات الثورية (في المجال الاقتصادي) وأجهاضها في التو أو بمرور الوقت.

واذا كان التوصل الى مثل هذه الحقائق المعروضة هينا ـ لأن مثل هذه الحقائق مستقراة من الواقع أو من تحليلات الايديولوجيين الثوريين للواقع ـ فانه مما يثير نقاشا عريضا ومحتدما يغني الفكر والتجربة الثورية .

السؤال : لماذا توجد حركات فكرية أوتيارات فلسفية أو عطاءات عقلية عالية في بعض العهود الرجعية أو القنية أو الاسترقاقية أكثر أهمية ونفاذا وشمولية من بعض قضايا الفكر بعد انتصار الاشتراكية أحيانا ؟

أي ما هو التشخيص العلمي أو الرؤية الصادقة التي ارتكز عليها (ماركس) عندما تحدث عن (اليونانيين) (أطفال البشرية) فيما قدموه من فكر باهر ؟ وهل كان لذلك الفكر بناء تحتي وأساس من العلاقات الأنتاجية المفترضة ؟

الموضوعة الثالثة : النظرية الثورية والفكرعند الثوري :

لما كان الثوري الحقيقي يراهن ـ دون أن يقامر ـ من أجل أثبات معطياته العقلية فهو يسعى في تغيير الواقع مزودا بسلاحه النظري الذي يكتشف ويستنتج ويقرر التغيير . ومن هنا فأن النظرية الثورية بالنسبة للثوري هي أداة الوحدة في فرز الاختلاطات والتداخل في شبكة العلاقات الكلية وهي التي تحدد له خط العمل وخط السير .

والنظرية الثورية ليست صيغة كاملة نهائية ، لانها اذا كانت فانما يقودنا ذلك النظر الى مثالية جديدة تصم أذنها وتتعالى على الواقع . بل ان النظرية الثورية ثمرة احتكاك وتفاعل المبادىء الذهنية المجردة مع التجربة . ومن هذه النقطة تأخذ النظرية الثورية حيويتها ونشاطها العامل .

ولكن يشاء البعض أن يقولب النظرية الثورية بتحديدها في مجموعة مقولات واشتراطات وافتراضات قسرية تتسمنت في اطار الوعي الستاتيكي . وذلك يتم عبر قناعة غبية تدعي الامتياز وتتحاشى مواجهة الواقع المتجدد . ولعل أخطر ما يسبب انحراف النظرية الثورية وابتعادها عن علة وجودها أمران . الأمر الاول محاولة تخطيط وتسييج النظرية وكأنها علم قائم بذاته ويغني عن ضرورات التوسع الفكري . فيكون حامل النظرية ملما بتفاصيل كثيرة عن أساسيات النظرية الهيكلية والتجريدية ومتخليا في نفس الوقت عن مهمة معرفة الكثير من الافكار والتيارات والاتجاهات والمنجزات الفكرية المتعددة . وبذلك فأن النظرية تكون معزولة عن وسطها الطبيعي الذي اوجدها ويقرر مصيرها وهو الفكر ككل . ان النظرية تعيش وتزدهر متى كان صاحبها مسؤولا أمام الفكر العالمي والتاريخي كمتعلم ودارس ومنقب . فلا شيء في الفلسفة أو في التاريخ او في بقية صنوف المعرفة والعلم لا يستوجب الاطلاع ، بل العكس هو الصحيح لأن الثوري المكلف بمهمة تغير العالم مطالبا بأن يعي أي عالم هذا الذي يحياه وأي فكر هذا الذي يولد في العالم .

أن النظرية هي حيوية وديناميكية فقط في كينونتها عبر حركة الفكر وجدليته وبدون ذلك سرعان ما تتبدد . اما الأمر الثاني فهو التصور بأن الوعي الثوري للنظرية المرشدة في العمل يتحقق بعد معرفة بعض البنود اوالخطوط العامة في الماركسية . كأن يعتقد الشخص بأن معرفته بالتحديدات العامة والمختزلة للمادية الديلكتيكية أو المادية التاريخية هو جوهر الارب . وأذا به يحول الماركسية الخلاقة الى مجموعة مبادىء مسطرة بتكرار آلي ومهيأة للترديد القولي والثرثرة الفارغة . أن الواقع هو أن من المستحيل أن يكون المرء ماركسيا اذا لم يعرف عالمه ، مجتمعا واقتصادا وسياسة وفنا وعلاقات .وبهذه المعرفة تكون المادية الديلكتيكية والتاريخية طريقة تفسير وأساس لمنطلق الرؤية الحقيقية التي تقود الى الكشف الموضوعي .

فليس المهم أن يتحدث أحد عن المادية الديلكتيكية بالصورة الجاهزة واللاهوتية عن تحول (الكم) الى (كيف) أو عن(التناقض) .. الخ ، بل المهم أن يعيش ويعي هذا التحول وهذا التناقض ويختبره وبذلك فقط تتأكد صحة المقولة . ولهذا فالماركسي لا بد أن يتخصص في ناحية من نواحي الأيستمولوجيا . وكون الماركسي عالما اجتماعيا أو اقتصاديا أو فنانا أو شاعرا أو خبيرا في ابداع عملي معروف هو وحده الذي يعطي الصورة الشرعية والصادقة عن ماركسية الماركسي . اما حفظ الاقاليم والمصطلحات والتعداد الرقمي المنسوخ فهذا محاولة شائنة لحجر الماركسية في توابيت الاعداء) .

أن هذين الامرين المذكورين أعلاه لا يعيقان النظرية الثوريةعن دورها العلمي الواقعي الطليعي فحسب بل قد يعرضان حتى الحركة العفوية للتطور الى التلكؤ والاضطراب .

ـ للبحث صلة ـ

بغداد — عزيز السيد جاسم

دراسات ادبية

من منشورات دار الآداب

- من أدبنا المعاصر
  للدكتور طه حسين
- قضايا جديدة في ادبنا الحديث
  للدكتور محمد مندور
- مشكلة الحب
  للدكتور زكريا ابراهيم
- تجديد رسالة الغفران
  لخليل هنداوي
- دراسات في الادب الجزائري
  لابو القاسم سعد الله
- بابا همنغواي
  لهوتشنر
- الادب المسؤول
  رئيف خوري